بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿١﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمْۚ إِنَّ زَلْزَلَةَ ٱلسَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ﴿٢﴾ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّآ أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى ٱلنَّاسَ سُكَٰرَىٰ وَمَا هُم بِسُكَٰرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ ٱللَّهِ شَدِيدٌ ﴿٣﴾

شرح الكلمات:

اتّقوا: وقاه وِقاية: ستَره من الأذى وصانَه وحفِظه. والوقاء والوقاية: ما وقَيتَ به شيئًا (الأقرب)، كما يقي الجِلدُ الكتابَ والقشر الشجرةَ.

وفي المفردات: "الوقاية: حِفظُ الشيءِ مما يؤذيه ويضرّه. والتقوى: جعلُ النفسِ في وقاية مما يخاف."

فالمراد من قوله تعالى ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ﴾ اجعلوا الله وقايةً وسترًا للنجاة من الآفات.

الساعة: جزءٌ من أجزاء الزمان؛ ويعبَّر به عن القيامة. وقيل: الساعات التي هي القيامة ثلاث: الساعة الكبرى، وهي بعثُ الناس للمحاسبة؛ والساعة الوسطى، وهي موت أهل القرن الواحد؛ والساعة الصغرى، وهي موت الإنسان، فساعة كل إنسان موتُه (المفردات). فالمراد من الساعة هنا: ساعة الهلاك، أو تلك الساعة المعينة التي تُنتظر.

تذهَل: ذهَله: نسيه لشُغلٍ (الأقرب).

سُكارى: جمعُ سكران. سكِر من الشراب نقيضُ صحا (الأقرب).

التفسير: وليكن معلومًا أنه ليس ضروريًّا تطبيق هذه الآية على الآخرة، بل إن هذا المشهد يمكن أن يُرى خلال الحروب والزلازل أيضًا. فهكذا كانت حالة الناس

تمامًا حين ضرب زلزال عنيف محافظة "كانغره" سنة ١٩٠٥م، حيث راح ضحيته ثلاثون ألف إنسان، وكان عدد الجرحى أكثر من ذلك بكثير. لقد انمحت العديد من القرى من على وجه الأرض، واهتزت منطقة البنجاب من أقصاها إلى أقصاها.

وهذا المشهد نفسه قد شوهد لدى زلزال "كويته" عام ١٩٣٥م، فحين كانت القطارات الخصوصية تأتي بالناجين من الزلزال من الجرحى وغيرهم كان الناس يجرُون على الأرصفة مذهولين بحثًا عن أقاربهم، وعندما كانوا لا يجدونهم كانت صيحات بكائهم وآهاتهم ترتفع بشكل مخيف. فكتب مراسل جريدة أنه رأى على محطة القطار امرأة تتمايل كالسكران، وتسقط إلى اليمين مرة وإلى الشمال مرة أخرى، وهي تقول باكية لقد مات جميع أقاربي ولم يبق أحد. وقد أخبر بعضهم أن المنكوبين لما كانوا يُسألون عن الحادث كانوا يأخذون في البكاء والعويل بدلاً من أن يجيبوا شيئًا. كما أن العديد صاروا مجانين لشدة الصدمة، فقد نشرت الجرائد في تلك الأيام أن امرأتين من ضحايا الزلزال العائدين بالقطار من "كويته" إلى "ملتان" أُصيبتا بالجنون، وأن رجلاً آخر أصيب بالجنون وقفز من القطار السريع. إذًا، كان مشهدًا مؤلمًا لدرجة أن من قرءوا أخباره، ناهيك الذين شاهدوا دماره، صاروا مذهولين وكوى الجزع قلوبهم. (جريدة "انتخاب لا جواب": لاهور ٢٧/ ٨/ ١٩٣٥)

كذلك لما ضُربتْ منطقة "بِهار" بزلزال مدمر شبيه بزلزال القيامة تراءى للناس مشهد مماثل تمامًا. حتى قال حاكم الهند آنذاك "اللورد ريدنغ" في خطابه بلندن وعيونه تذرف بالدموع: إنه زلزال عنيف هائل لم يسبق لـــه مثيل في تاريخ الهند. (جريدة Civil & Military Gazette ١٠ فبراير ١٩٣٤)

وكتبت جريدة أخرى: حتى إن الحيوانات، دَعْكَ من الناس، أيضًا صارت مذهولة نتيجة هذا الغضب الإلهي، بل إن الوحوش الضارية أيضًا أصيبت بالذهول والدهشة لدرجة أنها كانت تجري مع الناس في ذعر شديد. (جريدة "حقيقت" لكناؤ ١٨ يناير ١٩٣٤)

وكتب مراسل جريدة أخرى: لقد رأيت عدة أشخاص يقفزون من الشبابيك، ولكن قبل أن يصل هؤلاء إلى الأرض كانت جدران بيوتهم تتهدم وتستوي

بالأرض. وبدا وكأن هناك مطرًا من الرؤوس والأيادي البشرية. (جريدة "برتاب" لاهور ٢٦ يناير ١٩٣٤)

أما الدمار الذي حل بمنطقة "مونغير" فقد كتب عنه شاهد عيان وقال: اهتزت الأرض مرتين يمينًا وشمالاً، وبعدها بدا وكأن أحدًا قد وضع الأرض على بَكرة ودوّرها. ففقدت الوعي، ولما أفقتُ بعد نصف ساعة كان أمامي مشهد غريب جدًّا. لقد رأيت أنقاض البيوت حتى منتهى البصر، وكان يخيل إلي أنني لست في مدينة "مونغير". لقد تغيرت المدينة تمامًا حتى لم أقدر على معرفة بيتي أيضًا. (جريدة "انقلاب" ١ فبراير ١٩٣٤)

وكتب محرر جريدة "ملاب": رأيت الآباء يبحثون عن أولادهم، كما أن الأولاد يتيهون بحثًا عن آبائهم. إن الأولاد الذين نجوا من البيوت المتهدمة يقلبون كل حجر علَّهم يجدون آباءهم فينادوهم بحب وحنين. ولكن هل ترك الزلزال أحدًا منهم حيًّا! كلما يتم العثور على جثة من تحت الأنقاض يرتفع بكاء وعويل يذيب أشد القلوب قسوةً. (جريدة "ملاب" ٢٥ يناير ١٩٣٤)

وهذا ما يحدث في الحرب أيضًا. فقد ورد في الحديث أن النبي ﷺ رأى في إحدى الحروب امرأة تجري هنا وهناك بحثًا عن ولدها. فكلما وجدت صبيًّا ظنته ولدها، فألصقته بصدرها ثم تركته، وأخذت تجري كالمجانين بحثًا عن ولدها، حتى وجدتْه. فاحتضنتْه وأخذت تلاطفه وتداعبه، ثم جلست بهدوء ترضعه. فقال النبي ﷺ: هل رأيتم ما بهذه من الحزن والكرب؟ الله أشد حزنًا على عبده المذنب من هذه على ولدها* (مسلم كتاب التوبة، باب سعة رحمة الله).

أما قول الله تعالى ﴿وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى﴾ فمعناه أن تصرفاتهم لن تكون تحت سيطرتهم لشدة الذعر شأن السكران الذي لا يملك

* نص الحديث هو: "عن عمر بن الخطاب أنه قال قدِم على رسول الله ﷺ بسبي، فإذا امرأة من السبي تبتغي، إذا وجدتْ صبيًّا في السبي أخذتْه فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال لنا رسول الله ﷺ: أترون هذه المرأة طارحةً ولدَها في النار؟ قلنا: لا والله، وهي تقدِر على أن لا تطرَحه. فقال رسول الله ﷺ: لَلهُ أرحَمُ بعباده مِن هذه بولدها." (مسلم، كتاب التوبة). *(المترجم)*

السيطرة على تصرفاته. وهكذا تكون حالة الناس في الحرب الشديدة. فإذا طبقنا هذه الآية على الحروب، فأرى أنها تنطبق على فتح مكة بشكل أوضح وأمثل. لقد سُميت هذه السورة سورة الحج، وكان هذا إشارة إلى أن المسلمين سيتمكنون من أداء الحج بعد حرب عظيمة. علمًا أن النبي ﷺ هو الذي قد سمى معظم سور القرآن الكريم◈، وقد تحدثت هذه السورة عن الحج في ركوعها الثالث، كما تحدثت عن إبراهيم عليه السلام الذي أُقيم بواسطته حج بيت الله الحرام؛ فثبت بذلك أن هذه الآيات تضمنت الإشارة إلى حرب عظيمة تمهّد للمسلمين الطريق للحج.

لا شك أن كلمة ﴿زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ الواردة في الآية تُوهِم، في أول وهلة، أن الحديث هنا يدور عن العذاب المقدر للكفار في الآخرة فحسب، ولكن الأمر ليس كذلك، إذ يتضح من دراسة القرآن الكريم أنه لم يستعمل كلمة الساعة بمعنى القيامة التي تكون في الآخرة فحسب، بل قد استعملها أيضًا بمعنى ساعة رقي جماعات الأنبياء وهلاك أعدائهم. قال الله تعالى ﴿زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾(البقرة: ٢١٣). لقد بين الله تعالى هنا أن الكافرين يعتبرون هذه الحياة الدنيا منتهى غايتهم، وأنهم مغرورون بقوتهم، مع أن الأمور بالخواتيم، وسيكون مآل المسلمين هو الأفضل، وسيصبحون غالبين على الكافرين. أما لو قلنا أن هذه الآية تعني أنهم سيصبحون غالبين عليهم بعد الموت في الحياة الآخرة فليس في ذلك دليل للكفار على صدق المسلمين؛ إذ سيقول لهم الكفار إننا لا نؤمن بالحياة بعد الموت، ولا يمكن أن نصدق أنكم ستصبحون غالبين علينا في الدنيا. إن هي إلا أحلامكم ودعاويكم الفارغة. إضافةً إلى أن الإيمان بعد الموت لا ينفع صاحبه، فما الفائدة من

◈ كثير من سور القرآن لها أكثر من اسم، وقد رويت كل هذه الأسماء عن الرسول ﷺ، ولا شك أنها كلها وحي. *(المترجم)*

تقديم غلبة المسلمين هذه أمام الكفار كحُجة في الآخرة؟ فثبت أن هذه الآية لو طُبقت على الآخرة فلن يبق لـــها أي مدلولٍ أو مفهوم، كما لا يمكن أن تُعتبر دليلاً على صدق الإسلام.

فالحق أن ﴿زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ﴾ تعني هنا فتح مكة وما شابه ذلك من الوقائع التي نال فيها المسلمون غلبة واضحة. فإن الرسول ﷺ لما قال للكفار يوم الفتح: أخبروني ماذا يُفعل بكم الآن، قالوا افعَلْ بنا ما فعل يوسف بإخوته◉. وهذا يعني أنهم قد اعترفوا بذلك أن الله تعالى قد جعل النبيَّ ﷺ غالبًا عليهم كما صار يوسف عليه السلام غالبًا على إخوته في آخر المطاف، فتوقعوا منه ﷺ نفس المعاملة التي عامل بها يوسف إخوته. فما كان من الرسول ﷺ إلا أن قال: "لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم. اذهبوا فأنتم الطلقاء" (السيرة الحلبية: فتح مكة، الجزء الثالث ص ١١٣). أي لا مؤاخذة عليكم. فليغفر الله ذنوبكم. اذهبوا فأنتم أحرار جميعًا.

فقد ثبت من هذه الآية أن لفظ "الساعة" أو "القيامة" قد ورد في القرآن الكريم بمعنى الفتوحات الإسلامية أيضًا. وهذا هو المقصود لقول الله تعالى ﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۞ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ حيث أنبأ تعالى فيه عن فتح مكة، مبينًا أن زلزلة كالقيامة آتية على الكفار، وحين يرونها يصابون بالذعر الشديد حتى لن يجدوا لهم مخرجًا ولا مناصًا، بل سيتعثرون كالسكارى. وهذا ما يؤكده لنا التاريخ، فإن قريشًا لما نقضت صلح الحديبية وأغارت بمساعدة بني بكر على بني خزاعة المعاهدين

◉ ورد في معظم المصادر أن النبي ﷺ قال: "يا معشر قريش، ماذا تظنون أني فاعل فيكم؟ قالوا: خيرًا. أخ كريم وابن أخ كريم. فقال النبي ﷺ: أقول لكم كما قال أخي يوسف: لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. اذهبوا فأنتم الطلقاء." (السيرة الحلبية: فتح مكة، الجزء الثالث ص ١١٣) *(المترجم)*

للمسلمين، وقتلوا أشخاصًا منهم، بعث بنو خزاعة أربعين شخصًا إلى المدينة على النوق السريعة يخبرون النبي ﷺ بغدر الكفار، ويطالبونه بحسب المعاهدة ﷺ بشن الهجوم على مكة انتقامًا لهم. وقبل أن يصل الوفد الخزاعي إلى المدينة أخبر الله رسوله ﷺ من خلال الكشف بغدر أهل مكة. تروي أم المؤمنين ميمونة – رضي الله عنها – أن رسول الله ﷺ بات عندي ليلة، فاستيقظ لصلاة التهجد. فسمعته يقول وهو يتوضأ: لبيك، لبيك، لبيك ثلاثًا؛ نُصرتَ، نُصرتَ، نُصرتَ ثلاثًا. فقلتُ: يا رسول الله، ما هذا الذي قلت؟ كأنك تكلّم إنسانًا؟ قال ﷺ: لقد رأيت حالاً أن وفدًا من خزاعة قد جاءوني ويقولون إن قريشًا قد أغارت علينا بمساعدة بني بكر، فأصابوا عديدًا منا. فانتصِرْ لنا وفق المعاهدة بشن الغارة على مكة. فقلت لهم: لبيك. إني جاهز لذلك تمامًا.

فبعث بنو خزاعة وفدهم إلى المدينة، وفي الوقت ذاته فقد توقع أهل مكة أن المسلمين سيشنّون عليهم حربًا إذا بلغهم نقض الميثاق.. فبعثوا أبا سفيان إلى المدينة ليحاول التعديل في معاهدة الصلح بطريق أو بآخر، حتى لا يُتّهموا بالغدر. فبلغ أبو سفيان المدينةَ وبدأ يقول للناس إني لم أحضر صلح الحديبية، وأنا أكبر رؤساء مكة، فلا أهمية للمعاهدة بدون موافقتي، وأريد أن تتم المعاهدة من جديد. فجاء النبيَّ ﷺ، ثم أبا بكر وعمر أيضًا، ولكن لا أحد اهتم به. فلما يئس أبو سفيان من الجميع قام في المسجد وقال: أيها الناس، إني لم أحضر صلح الحديبية، وأنا رئيس مكة، فلا قيمة لتلك المعاهدة، وأريد توقيعها من جديد. فضحك المسلمون من سذاجته، فناله من الخزي ما نال، ورجع إلى مكة خائبًا خاسرًا.

وجهز النبي ﷺ جيشًا من عشرة آلاف مسلم للهجوم على مكة، وسار به على جناح السرعة ونـــزل قريبًا من مكة ليلاً. ثم أمر بإشعال النيران أمام كل خيمة. فكان للنيران المشتعلة أمام خيام عشرة آلاف جندي مشهدٌ هائل. وكان النبي ﷺ قد أخفى مسيره إلى مكة، فلم يدر أهلها أن الجيش المعسكر حولهم هو الجيش المسلم، فأوجسوا في أنفسهم خيفة. وكان فشل أبي سفيان قد زاد الطين بلة. فأشاروا عليه بالعودة إلى المدينة ليتحسس خبر المسلمين. فلما خرج مع أصحابه من

مكة وجد الصحراء كلها مضيئة بالنيران، فقال لأصحابه في حيرة: من هؤلاء القوم؟ ما هذا؟ هل نـــزل جيش من السماء؟ فأخذوا يذكرون لـــه أسماء قبائل مختلفة. فكلما ذكروا لـــه قبيلة رفض رأيهم قائلاً إن هؤلاء أذل وأقل من ذلك. وبينما هو يتحدث مع زملائه سمع من الظلام صوتًا يناديـــه: أبا حنظلة – وكان أبو سفيان يكنى أبا حنظلة – فعرف الصوت وقال: أين أنت يا عباس؟ فقال له العباس: هذا رسول الله ﷺ في جيشه! فإن كنت تريد النجاة فاركب البغلة خلفي، وإلا فها هو عمر قادم ورائي ليضرب عنقك. ثم أخذ العباس يد أبي سفيان بشدة – وكانا صديقين حميمين – وأركبه على دابته خلفه، وركض بها إلى رسول الله ﷺ، وعرض عليه ﷺ أبا سفيان قائلا: يا رسول الله، قد جاءك أبو سفيان يريد البيعة. وكان أبو سفيان مذهولاً مما حدث لدرجة أنه لم يتكلم بشيء. فلما رآه رسول الله ﷺ قال: اذهَبْ به يا عباس إلى رحلك، فإذا أصبحتَ فأْتِني به. فأتى به عند صلاة الفجر، فلما رأى أبو سفيان أن آلاف المسلمين يقفون إذا وقف رسول الله ﷺ، ويقعدون إذا قعد، ويركعون إذا ركع، ويسجدون إذا سجد، ظن أنهم ربما يتدربون لتعذيبه بنوع جديد من العذاب. فسأل العباسَ: ما هذا الذي يفعله هؤلاء في الصباح الباكر؟ فإن هؤلاء عشرة الآلاف من القوم يقفون إذا وقف محمد، ويركعون إذا ركع، ويخرون ساجدين إذا سجد، ويقعدون إذا قعد؟ قال له العباس: إنهم يصلّون. فقال أبو سفيان: لقد حضرتُ بلاط قيصر، وشاهدت بلاط كسرى، ولكني لم أر الناس يطيعون هؤلاء الملوك العظام كما يطيع هؤلاء محمدًا! قال العباس: لا تستغرب من ذلك؟ والله، لو أن محمدًا أمرهم أن يكفوا عن الأكل والشرب لما أكلوا ولما شربوا.

وعندما انتهت الصلاة أتى به العباس النبيَّ ﷺ، فلما رآه قال: ألم يأن لك، يا أبا سفيان، أن تعلم أنه لا إله إلا الله؟ قال أبو سفيان: بأبي أنت وأمي، قد أيقنتُ أنه لو أن مع الله إلهًا غيره لأغنى عني شيئًا. فقال النبي ﷺ: ويحك ألم يأن لك، يا أبا سفيان، أن تعلم أني رسول الله؟ فتلكّأ أبو سفيان في التصديق قليلاً، ولكنه أسلم أخيرًا بترغيب من العباس، ولأن صاحبيه الآخرين أيضًا كانا قد أسلما.

ثم قال يا رسول الله، هل لأهل مكة الأمان إذا لم يرفعوا السيف؟ قال النبي ﷺ: نعم، مَن كفَّ يده وأغلق داره فهو آمِنٌ. فقال العباس: يا رسول الله، إن أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعَلْ لـــه شيئًا. فقال النبي ﷺ: من دخل دار أبي سفيان فهو آمنٌ. فقال: يا رسول الله، إن داره لا تسع سكان مكة. فقال ﷺ: من دخل دار حكيم بن حزام فهو آمن. ومن ألقى السلاح فهو آمن. ومن دخل الكعبة فهو آمن. فقال: يا رسول الله حتى هذه الأماكن لا تسع سكان مكة. فقال ﷺ: حسنًا، ائتوني بقماش. فجيء بخرقة، فصنع منها لواء، وناوله أبا رويحة الذي آخَى النبيُّ ﷺ بينه وبين بلال، وقال ﷺ: من كان تحت لواء بلال فهو آمن. (السيرة الحلبية: فتح مكة الجزء الثالث ص ٨١-١١٣)

إن هذا الحدث التاريخي يصور لنا حالة أهل مكة حين قام أبو سفيان بهذا الإعلان بينهم. لا شك أن الجميع قد فروا كالمجانين إلى بيوتهم، وإلى الكعبة، وإلى راية بلال، وإلى بيت أبي سفيان، وإلى بيت حكيم بن حزام، بقلوب ترتجف، وأرجل تتخاذل، وحواس تختلّ.

هذا، وإن عطاء النبي ﷺ بلالاً الراية يمثل أسلوبًا لطيفًا لتذليل الكافرين واسترضاء بلال رضي الله عنه. لقد لقي بلال بسبب إسلامه رضي الله عنه الضرب والإهانة على أيدي الكافرين سنين طويلة، ففكر النبي ﷺ أن بلالاً سيقول في نفسه لقد عفا النبي ﷺ عن قومه، و لم ينتقم لما في قلبي من جراح عميقة؟ ولذلك صنع النبي ﷺ راية وناولها لأخٍ لبلال وقال: من وقف تحت راية بلال فهو آمن (السيرة الحلبية الجزء الثالث ص ٩٣). وهكذا دلل ﷺ على عظيم رحمته من جهة، ومن جهة أخرى وضع البلسم على جراح بلال أيضًا. اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد وبارِكْ وسلِّمْ.

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ﴿٤﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾

شرح الكلمات:

مَريد: المَريد: الخبيث المتمرد الشرير (الأقرب)

السعير: النارُ (الأقرب).

التفسير: لقد بين الله تعالى هنا أنه ينبغي للإنسان ألا يجادل في أي أمر بغير دليل وبرهان. فمن أظلمُ ممن يجادل في الله تعالى بغير علم ويتبع كل شيطان متمرد، مع أن الله تعالى قد كتب أن الذي يتبع الشيطان المتمرد ويواليه فلا بد أن يضله ويدفعه إلى طريق النار.

لقد تبين من هذه الآية أن المرء إذا أطاع الشيطان مرة بعد أخرى نشأت بينهما صداقة تؤدي به إلى جهنم في نهاية المطاف. وقد قال الله تعالى في موضع آخر من القرآن الكريم ﴿وَمَنْ يَكُنِ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا﴾(النساء: ٣٩). فإذا لم ينتبه المرء عندها إلى إصلاحه ذهب في طريق السيئات بعيدًا، فلا يعود الشيطان صديقًا لـــه بل يصبح سيدًا عليـــه، فيصفّده بأغلال العبودية كلية. وبتعبير آخر، إن المؤمنين يركبون مطايا الهدى، أما هؤلاء فينحطّون حتى يركبهم الشيطان ويسوقهم حيث يشاء. وهؤلاء هم الذين قال القرآن الكريم عنهم إننا جعلنا بعض الناس الذين يعبدون الشيطان (المائدة:٦١). وكأن الله تعالى قد بين هنا أن من أحطّ درجات الهوان أن الإنسان الذي خلقه الله تعالى ليكون عبدًا لـــه، يصبح مطيعًا للشيطان جراء سوء أعماله.

وأرى لزامًا هنا إلقاء بعض الضوء على الشيطان.. أي أن أبيّن ما هو الشيطان؟

الشيطان يعني في العربية الكائن الذي يبتعد عن الحق، أو يزداد شرًّا وسوءًا (لسان العرب: شطن). أما إبليس فهو من يصبح آيسًا (أقرب الموارد). وعندي أن الشيطان أو إبليس اسم لكائن خلقه الله تعالى إزاء الملائكة لاختبار البشر، فلا موت للشيطان ما لم يكمّل مهمته، كما لا موت للملائكة ما لم تتم مهمتهم.

والكائن الذي قام ضد آدم عليه السلام هو هذا الشيطانُ وأظلالُه. بيد أن التفاصيل الواردة في قصة آدم لها جزءان: جزء يشير إلى هذا المحرّض على الشر، وجزء آخر يشير إلى أظلاله. فالشيطان الذي كان في زمن آدم عليه السلام حيٌّ من جهة، وقد مات من جهة أخرى. إنه حيٌّ بمعنى أن المحرض على الشر سيظل موجودًا في الدنيا ما دام النسل الإنساني موجودًا فيها؛ وإنه ميتٌ بمعنى أن أظلاله أي أولئك الشياطين من البشر المذكورين في قصة آدم قد ماتوا في ذلك العصر نفسه.

ولا مجال لثواب أو عقاب الشيطان المحرض على الشر. ذلك أنه مما لا شك فيه أن الذي يقتل شخصًا آخر يعاقَب بالإعدام، ولكن البرق الذي يحرق عشرات الناس لا يستحق أي عقاب. وبالمثل إن حمم البراكين التي تثور عند الزلزال وتدمر مناطق واسعة، ومطرَ البرَدِ الذي يُهلك الزروع، والرياحَ التي تحوّل المدن خرابًا، كلها أشياء مؤذية مدمرة، ولكنها لا تعاقَب في أي شرع. فلا شك أن الشيطان وإبليس مصيرهما جهنم، وأن الملائكة مصيرها الجنة، ولكن لن تجد الملائكة في الجنة أي متعة، كما لن يشعر الشيطان في جهنم بأي أذى. ذلك أن الشيطان كائن ناري، ومتى تتألم جذوة من النار إذا ما أُلقيت في الأتون؟! إن النار إنما هي مقام إبليس. فليس المراد من دخول الشيطان النارَ أنه سيعاقَب بذلك، بل المعنى أنه وصل إلى المكان الذي كان ينتمي إليه. إن الملائكة إذا دخلت الجنة فلن تدخلها كجزاء لها، وبالمثل لن يدخل الشيطان النار كعقاب لـــه. نعم، إن أظلال الشيطان يعاقَبون بحسب جريمتهم لأنهم يقومون بأعمال لم يُخلقوا من أجلها. علمًا أن العقاب إنما هو على أعمال تكون خلافًا للقانون الطبيعي، ولما كان الإنسان قد خُلق بطبعه للأعمال الصالحة لقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات: ٥٧) فمَن ترَك منهم العبودية لله تعالى ونسي عبادة الله استوجب العقاب. ولكن

الحافز على الشر، أي الشيطان، لم يُخلق إلا لاختبار الناس، فلن يعاقَب إلا إذا قصّر في تحريضه إياهم على الشر.

نعم، يمكن أن يقال: فلماذا يُذكر الشيطان بالسوء إذًا؟ والجواب أن كون الشيء سيئًا أمر، وكونه مستوجبًا للعقاب فهو أمر مختلف تمامًا. فمثلاً، إننا لا نرمي الغائط والبراز بعيدًا عنا عقابًا لـــه، بل لأن بقاءه داخل البيت ضار بصحتنا. وهكذا حال الشيطان الذي هو الحافز على الشر. إنه يمثّل المرض والإثم، فلا بد أن يوصف بالسوء، ومع ذلك لا يستوجب العقاب. بيد أن هناك أظلالاً تابعين لـــه من البشر ومن الجن* أيضًا. والأرواح الشريرة التي لم تُخلق للسوء، ولكنها تحب السيئة فتحفّز عليها، أو البشر الذين لم يُخلقوا من أجل السوء، ولكنهم يحبون السوء، فيحثّون عليه، إن هؤلاء كلهم أيضًا شياطين وأبالسة بدرجات متفاوتة، ويستوجبون العقاب.

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّنَ ٱلْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ ۚ وَنُقِرُّ فِى ٱلْأَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوٓا۟ أَشُدَّكُمْ ۖ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰٓ أَرْذَلِ ٱلْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنۢ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْـًٔا ۚ وَتَرَى

* يدخل تحت مسمى "الجن" كل الكائنات والقوى التي لا نعرف كنهها ولا طبيعتها. ولكنها ليست الجن بالمفهوم التقليدي الشائع. راجعْ للمزيد الجزءَ الرابع من هذا التفسير ص ٩٤ سورة الحجر: قوله تعالى ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ﴾. *(المترجم)*

ٱلْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَآ أَنزَلْنَا عَلَيْهَا ٱلْمَآءَ ٱهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنۢبَتَتْ
مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ﴿٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّهُۥ يُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ
وَأَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٧﴾ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا
وَأَنَّ ٱللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِى ٱلْقُبُورِ ﴿٨﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ
بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٩﴾ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن
سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ
ٱلْحَرِيقِ ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿١١﴾
وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَعْبُدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ ۖ فَإِنْ أَصَابَهُۥ خَيْرٌ ٱطْمَأَنَّ بِهِۦ
ۖ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ ٱنقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِۦ خَسِرَ ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةَ ۚ ذَٰلِكَ
هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٢﴾ يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُۥ وَمَا
لَا يَنفَعُهُۥ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلضَّلَٰلُ ٱلْبَعِيدُ ﴿١٣﴾ يَدْعُوا۟ لَمَن ضَرُّهُۥٓ أَقْرَبُ
مِن نَّفْعِهِۦ ۚ لَبِئْسَ ٱلْمَوْلَىٰ وَلَبِئْسَ ٱلْعَشِيرُ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ
ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ
يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴿١٥﴾ مَن كَانَ يَظُنُّ أَن لَّن يَنصُرَهُ ٱللَّهُ فِى ٱلدُّنْيَا

وَٱلْأَخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى ٱلسَّمَآءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُۥ مَا يَغِيظُ ﴿١٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يُرِيدُ ﴿١٧﴾

شرح الكلمات:

مُضْغة: قطعةُ لحمٍ. (الأقرب)

مخلَّقة: تامّةُ الخَلْق. (الأقرب)

هامدة: هَمَدت الأرض: إذا لم يكن بها حياةٌ ولا عُودٌ ولا نبتٌ ولا مطرٌ. وفي "الأساس": أرضٌ هامدةٌ: قد يبِس نباتُها وتحطَّمَ. (الأقرب)

اهتزّتْ: اهتزّت الأرضُ: أنبتتْ (الأقرب)

بهيجٌ: بَهِج به: فرِح به وسُرَّ. فالبهيج: السارُّ (الأقرب)

عطْف: العطف من كل شيء: جانبُه (الأقرب).

حَرف: حرفُ كل شيء: طرفُه وشفيرُه وحدُّه (الأقرب)

العشير: الصديق (الأقرب)

التفسير: أي يا أيها الناس، لِمَ تنتابكم الشبهات حول الحياة بعد الموت؟ ألا ترون أن خلقتكم الأولى كانت من أشياء لا حياة فيها؟ فالخضرة تخرج من التراب، وتتحول الخضرة التي يأكلها الإنسان إلى النطفة، ثم تنقلب النطفة إلى عَلقة من دم، ثم تصبح العلقة قطعة لحم تأخذ بعضها شكل جسد إنسان وبعضها تظل ناقصة. ونخلقكم على هذا المنوال والترتيب لنعطيكم فكرة حول خلقكم الروحاني. وعندما نخلق الجنين إلى حد معين نبقيه في الرحم لفترة محددة، ثم نخرجه طفلاً، لكي تبلغوا شبابكم رويدًا رويدًا. ومنكم من نتوفاه قبل أن يقوم بأي عمل في الدنيا، ومنكم من نمد في عمره حتى يبلغ سن الضعف أي الشيخوخة، وذلك لكي ينال العلم إلى حد معين ثم يصير جاهلاً تمامًا. وترون الأرض بلا حياة وقوة، ثم إذا أمطرنا عليها

الماء أخرجت خضرتها، وأنبتت أزواجًا جميلة شتى. ذلك لتعلموا أن كل ما يريده الله تعالى يتحقق حتمًا، وأنه تعالى يحيي الموتى، وأنه يملك القدرة كلها على فعل كل ما هو موافق لمشيئته.

علمًا أنني قد فسرتُ قوله تعالى ﴿وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بهذا المعنى لأنه تعالى لم يقل هنا "وأنه على كل فعل قديرٌ"، فكأنه تعالى أعلن بذلك أن قدرته إنما تتجلى في الأمور الجيدة التي يشاؤها، لا فيما هو لا يريدها. فلا يمكن أن يقال مثلاً: هل الله تعالى قادر على أن يكذب؟ أو هل هو قادر على أن يسرق؟ أو هل هو قادر على أن ينتحر؟ ذلك لأنها كلها أمور غير مرغوب فيها تتعارض مع قدرة الله تعالى ومشيئته. فالقرآن الكريم إنما يقول إن الله تعالى قديرٌ على الأمور المرغوب فيها.. أي أنه تعالى إنما يجلّي قدرته في الأمور التي يتفق تحقُّقُها مع مشيئته.

ثم يقول الله تعالى أيها الناس عليكم أن تدركوا برؤية كل هذه الأمور أنه كما يتم خَلْق الجسم تدريجيًّا كذلك يتم خلق الروح بالتدريج. فعلى الكفار ألا يستعجلوا بهلاكهم وبرقي المسلمين بمجرد إعلان رسول الله ﷺ بدعواه. كلا، بل كما أن الجسد يُخلق تدريجيًا، كذلك سيحرز الإسلام والمسلمون الكمال شيئًا فشيئًا. وكما أن الجسد يؤول بعد فترة إلى الضعف والاضمحلال فلا يصلح لشيء مطلقًا، كذلك تصابون، أيها الكافرون، بالضعف والانحطاط إزاء المسلمين وتهلكون، فلا تستعجلوا. فلا الحياة التي توهب من عند الله تعالى تبدي آثارها فورًا، ولا الهلاك الذي يحيط بالشعوب يأتي بنتائجه فجأة. بيد أن ما يقول الله تعالى يتم حتمًا، فمن كُتبتْ له الحياة نالها، ومن قُدر له الهلاك أحاط به. ولا بد أن يحيا الذين كُتبتْ لهم الحياة وإن بدوا للناس كمدفونين في القبور، أما الذين قُدّر لهم الهلاك فلن ينفكّوا يجادلون في الله بغير علم مستكبرين، ويودّون أن يُضلّوا الآخرين، ولكنهم سيلقون الخزي والهوان في الدنيا، كما سيعذَّبون في الآخرة. وإن عذاب الله لا ينـــزل بلا سبب، وإنما ينـــزل نتيجة أخطاء الإنسان وسيئاته. إنما يريد الله تعالى للإنسان أن يرغب فيه بكل قلبه، لأن العبادة التي تتم بدون رغبة صادقة لا تحظى بالقبول. عليه أن لا يترك الله تعالى في السراء والضراء وإلا فلا جدوى من مثل هذا

الإيمان. والحق أن الإيمان الذي يجعل صاحبه وارثًا لنعَم الله تعالى ويجعله من المقربين لديه تعالى إنما هو ذلك الإيمان الذي يكون أسمى من كل أنواع الشكوك والشبهات، ويكون خاليًا من محبة ما سوى الله تعالى. وفي بلدنا أيضًا يقولون: إن الذي يحاول أن يركب قاربَين في وقت واحد هالكٌ لا محالة. والحق أنه حتى لو جرى القاربان جنبًا إلى جنب لبعض الوقت فإن تيار الماء يفصلهما حتمًا في وقت من الأوقات، وبالتالي لا بد من أن يغرق من وضع قدميه فيهما؛ كذلك فإن الذين يدّعون بحبّه تعالى بألسنتهم، ويتهافتون عمليًّا على الدنيا كل حين، نابذين أحكام الله وراء ظهورهم، فليسوا من الله تعالى في شيء. لما أغار الأتراكُ (التتارُ) على بغداد قتلوا من أهلها مليونًا وثماني مئة ألف شخص (تاريخ ابن خلدون مجلد ٣ ص ٥٣٧). وبرؤية هذا الدمار المخيف ذهب بعض أهلها إلى أحد من أولياء الله تعالى ليدعو لنجاة المسلمين من هذا الدمار. فقال لهم هذا الولي: ماذا أفعل، فإنني كلما أرفع يدي للدعاء أسمع صوت الملائكة من السماء يقول: أيها الكُفّار، اقتُلوا الفُجّارَ.. أي أيها الكافرون اقتلوا هؤلاء المسلمين الفجرة. وذلك برغم أن الفريق الذي كان يتعرض للدمار كان يؤمن بالله ورسوله، ولم يكن للفريق الآخر أي علاقة بالدين. وقد حدث ذلك لأن هؤلاء كانوا مسلمين بالاسم فحسب، ولم يحدثوا أي تغير طيب في أنفسهم، فاستحقوا العذاب.

إذًا، فعلى الإنسان أن يفحص إيمانه دائمًا وينظر إلى نوعية علاقته بالله تعالى.. أهو قائم على عهده ووعده بالوفاء التام في حالتي العسر واليسر أم لا؟ فلو أنه أثنى على الله تعالى إذا أنعم عليه، وإذا حلّت به مصيبة قال متى أنعم الله عليّ من قبل حتى أصابني بهذه المصيبة، لتبين أن إيمانه ليس إلا خدعة. إنما صاحب الإيمان الكامل من يظل ثابتًا مستقيمًا عند كل ابتلاء ومصيبة، بل يصبح عند حلول المصائب أكثر إنابةً وانكسارًا وتواضعًا لله تعالى. وهذا ما يبين الله تعالى هنا فيقول يجب أن تظل صلتكم بالله قوية في كل الأحوال، فلا تقطعوا صلتكم به حتى في المصائب. ورد في الحديث أن أعرابيًّا بايع النبي ﷺ وأسلم، ولكنه أصيب بالحمى بعد بضعة أيام. فجاء النبيَّ ﷺ وقال أريد أن تردّ لي بيعتي فقد أصابتني الحمى (البخاري: كتاب فضائل

المدينة، باب المدينة تنفي الخبث). وعلى النقيض من هذا الأعرابي نجد أناسًا ضحّوا بأرواحهم وفاءً بالعهد الذي عقدوه مع محمد رسول الله ﷺ و لم ينكثوه مثقال ذرة. والحق أن الإخلاص الحقيقي والصلة الصادقة إنما يُعرفان عندما يُختبر المرء بابتلاء، أما في حالة الأمن واليسر فإن ضعفاء الإيمان أيضًا يبدون حبًّا وولاء كبيرين. لقد ذكر الله تعالى في بداية القرآن علامة المنافقين فقال ﴿كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾(البقرة:٢١).. أي أن البرق كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم توقفوا.. بمعنى أن المنافقين ينضمون إلى المؤمنين في أيام الأمن، ويخذلونهم وقت الشدائد، فمثل هذا الإيمان لا ينفع صاحبه شيئًا. وهذا ما أكده الله تعالى في هذه الآية أيضًا، فقال إنه لمن المحال أن ينجح من تكون صلته بالله تعالى ضعيفة لهذه الدرجة. أما أن يترك الإنسان عبادة الله تعالى ويعبد الأصنام التي لا تنفعه، بل في عبادتها احتمال الضرر بدل النفع، فهذه حماقة ما بعدها حماقة. إن الذين يعبدون الله وحده لهم الأمن والراحة في الآخرة وفي الدنيا أيضًا. فالذين يظنون أن الله لن ينصر عبده الموحِّد الكامل التوحيد، أي محمدًا رسول الله ﷺ، لا في الدنيا ولا في الآخرة، فعليهم أن يمدّوا حبلاً إلى السماء ويتسلقوا به، ثم ليقطعوه ويسقطوا على الأرض ويموتوا، لأن أملهم هذا لن يتحقق أبدًا. إنهم سيموتون بهذه الحسرة، بينما يستمر محمد رسول الله ﷺ في الرقي والازدهار ولن يمنعه من ذلك أحد. إن موتهم هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يحول دون رؤيتهم فشلَهم ورقيَّ محمد ﷺ، وليس هناك سبيل آخر لذلك. إن الله تعالى قد قرر في السماء ازدهار دين محمد ﷺ وانتصاره غير العادي، وقد امتشق حسامه ضد أعدائه ﷺ. فمهما مكر المعارضون الآن، ومهما احترقوا حسدًا ليل نهار، فليعلموا أن مكرهم وحيلهم ضد ما يغيظهم ستبوء بالفشل دائمًا، وسيموتون في نهاية المطاف ميتة حسد وحسرة ومعاناة. أما الإسلام فيترقى ويزدهر، ولا بد أن تنتشر دعوة محمد رسول الله ﷺ في الدنيا.